على هامش معالم التقريب *

مقاومة هبوط الطاقة الروحية

لا مراء فى أن شروح الفقهاء للعقيدة، عملية بشرية بها يختار بشر عبارات ـ عربية أو غير عربية ـ للتعبير بها عن تصور بشرى لأمور غير بشرية .. وهذه الصيغ تشير إلى الدين، ولكنها لا تعطينا دينا .. وإنما الذى يعطينا الدين حياتنا فيه وبه ..

والإسلام ليس فكرة ولا مبدأ من المبادئ بحسب اصطلاح العصر، والإنسان لا يدخل الإسلام أو يخرج منه باعتناق فكرة أو مبدأ .. إنما الإسلام حياة موالية لله فى اتجاه الله وكفى بالله حل وعلا هاديا ونصيرا .. وخارج هذه الحياة لا توجد حياة بالنسبة للمسلم السوى الذى لا يتصور حياة يحياها بشر بدون الله .

والشىء الجوهرى فى الإسلام هو الإرادة والعزم والموقف الذى يبنى عليهما إزاء الله جل شأنه بصدق وإخلاص وتأميل .. أما التدبير القرآنى ـ فيما يشير محمد عبد الله محمد ـ فهو جزء فى إنشاء الموقف، ومقدمة لتكوين الإرادة والعزم .. ولكنه يختلف عن التعمق الفكرى النظرى الذى يتعامل تعاملا معقدا مع المفاهيم والمجردات والمصطلحات والرموز .. وهذه الأغراض الفكرية قد تكون لها منافع غير منكورة ولا معترض عليها فى الإسلام، ولكنها لا ينبنى عليها شىء أساسى فى الدين .. إذ إن موالاة الله والاتجاه إليه عز وجل ـ لا ينطلقان من خلفية فكرية نظرية فى الإسلام بل هما

---

* المال ٢٠١١/٣/٣٠

الخلفية الحتمية الواجبة لفكر المسلم .. أياً كان هذا الفكر .. علمياً أو فلسفياً..

والإنسان النظرى لا ينمو لديه الإحساس بالحقيقة نمواً كافياً سليما .. ووجود الناس بالنسبة له وجود فكرى نظرى لوحدات فكرية نظرية .. ليس بين وجودها ووجوده وحدة فى الواقع .. ولا محبة حقيقية .. بل ترى وجود الناس عنده أقل أهمية بكثير من انتصار الفكرة والمبدأ والنظرية .. ومثل هذا الآدمى الذى لا يعرف محبة الناس، بعيد عن الإسلام .. فهو جبار متحجر مستخف يعيش فى عالم آخر يتخيل كل ما فيه حتى الله - عز وجل على وفق فكرته ونظريته .. ولذلك فهو متعلق بعالمه الموهوم أشد من تعلقه بالحياة .

وكما يقال إن الكفن لا جيوب له، فإن الحياة ليس لها جيب تحفظ فيه الدراهم أو الدنانير .. فهى تنفق وتغتنى وتثرى من إنفاق الحياة .. أما الدين فهو قطعة من الحياة يفنى ويغتنى ويثرى من الإنفاق لا من إنفاق الحياة .. ولا شىء فى الدين يمكن إبعاده عن تيار الحياة مع بقائه حيا .. ومهما صنعنا فإننا لن نستطيع أن نحتزن مزيدا من الدين فى الصيغ والأعمال الآلية الحالية من الشعور الحى !!

ويبدو أن ما ثار من خلاف فى تاريخ الإسلام وجدل بشأن ظاهر آيات الكتاب المجيد وروحها وباطنها، وتفسير وتأويل الآيات - يرجع بعضه إلى عدم التمييز بين الشحنة الروحية التى تحملها وتنقلها إلى المسلم المخلص، وبين ما يترتب على نقلها إليه من نشاط فى طاقته الروحية الكامنة . فإن هذا النشاط الروحى يجعل للآيات أصداء وإيحاءات فى قلب المؤمن، وكثيراً ما يحس البعض عند

سماعه آية معينة فى ظرف ما ـ وكأنها آتية بإرادة علوية فى هذا الموقف ليفهم منها هذا الفهم الذى وقع فى قلبه.

وهذا الفهم ليس تأويلاً أو تفسيراً للآية، ولا بياناً لمعانيها، وإنما هو شرح لتأثير عبارات للآية فى وجدان وعقل الناس .. أو هو تداعى المعانى الذى حدث على صورة منظمة عند المتأمل .. وليس لهذا الفهم قيمة تشريعية ولا معول عليه فى استنباط الأحكام الشرعية، ولكن فائدته الروحية عظيمة .. فهو باب واسع يدخل منه الأنس والطمأنينة والإحساس بالقرب إلى الله عز وجل.

وهبوط الطاقة الروحية يرجع فيما يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ إلى ثقافة الحواجز التى تقام حول مستويات هذه الطاقة الإلهية التى فى داخلنا . وهذا الهبوط أو الخفوت فيها أو خمولها ـ علامة مرضية تعنى تزايد الحواجز الكثيفة حول الطاقة الروحية .. وفى مقدمة هذه الحواجر قبولنا للقبح وامتصاصنا له والعودة إلى إفرازه وتسميته ونشره . فعدم نفور الأدمى من القبح خلل جسيم فيه، بل هو نوع من العمى الداخلى يفقده التمييز بين ما يجمل وما لا يجمل .. وبين العدل وبين الظلم .. وبين الحق وبين الباطل !

وقد يحاول البعض تحصين حياته من هذا القبح بالالتجاء إلى الأشياء التى يظنها جميلة، فيتزين أو يتحلى بها فى ملبسه أو فى سكنه .. وقد يلجأ البعض إلى العقاقير والكحوليات للتخلص من وطأة الشعور بالقبح .. ولكننا ننسى أن السلاح الأعظم فى مقاومة القبح ـ هو جمال أرواحنا .. أى طاقتنا الروحية .. وننسى أن أهل الله عبر العصور ـ رضى الله عنهم ـ عاشوا على ما يتدفق فى داخلهم عامرا بالجمال والكرامة .. لم يغيرهم الزهد ولا قلة الرياش أو خشونة الفراش أو تواضع البناء وانعدام الفخامة والأبهة !

ويستطيع المتأمل أن يلاحظ التناسب الطردى - فى عصرنا - بين خفوت الطاقة الروحية وبين الاستعاضة عنها بالأشياء والمقتنيات الجميلة لمدافعة القبح !!

وقد لوحظ ذلك بالعصر الوسيط فى أوروبا، بالإغراق - حين تراجع الإيمان - فى مظاهر الأبهة والفخامة والزخارف فى القصور وفى الكنائس والأديرة، بزعم أن الإنسان يستطيع أن يشهد جمال الله فى جمال هذه الأشياء !

يبدو أنه كتب على الأحياء أن يمشوا دهوراً وهم أنصاف نائمين .. غافلين عن أن اليقظة ليست مطلوبة فقط لبداية الحركة أو نهايتها، وإنما هى ضرورية لارتقاء الحياة واكتمالها ودفعها من الآلية خالية من القصد الواعى، إلى الإرادة المليئة بالوعى والحرية.

إن دنيا الأحياء مليئة بمخلوقات تتحرك وتتكرر من مولدها إلى مماتها وهى مغمضة الروح والعقل .. وأشباه هؤلاء العميان هم الكثرة الكاثرة فى دنيانا .. لا تمضى حياتهم على ما فيها - إلا بكفالة العناية الشاملة لله عز وجل، تقودهم برحمتها لتجتاز بهم مراحل متفاوتة ليقل فيها الميل إلى العمى العام والغفلة شيئاً فشيئاً، وليزداد الميل العام إلى اليقظة والإبصار شيئاً فشيئاً .. لأن تاريخ البشر يتوقف على تحول هذا الميل العام وتثبيت تحوله فى أعماق غالبية الآدميين .